﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾

[الأحقاف: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من الإخبارِ عمّا يكونُ لعمومِ المكلَّفين، إلى وعيدِ خصوصِ الكافرين

بعدَ أن بيَّنَتِ الآيةُ السّابقةُ جزاءَ المُكلَّفين جميعًا، وكان في الآياتِ الَّتي سبقتْ إظهارٌ لجزاءِ المحسنين؛ ناسبَ أن يُخصَّصَ الكلامُ في هذه الآيةِ عن الوعيدِ الَّذي للكافرين؛ وذلكَ لأنَّ الظّاهرَ في هذهِ السّورةِ الإنذارُ؛ فانتقلتْ إلى بيانِ بعضِ ما يُبكَّتُ بِهِ المُجرمونَ يَومَ البَعْثِ الَّذي كانوا بِهِ يُكَذِّبونَ، على سَبيلِ التَّنديمِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّشنيعِ؛ لأنَّهم لَم يَذكُروا اللّه حَقَّ ذِكرِهِ عِندَ شَهَواتِهِم، بَل نالوها مَعَ مُخالَفَةِ أمرِه، واستكبروا في الأرضِ بغيرِ حقٍّ، وفَسَقوا عن طريقِ الصَّوابِ[1]، وهو انتقالٌ من الإخبارِ عمّا يكونُ لعمومِ المُكلَّفين، إلى وعيدِ خصوصِ الكافرين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾: ذَهبَ يَذهَبُ ذَهابًا وذُهوبًا، فهوَ ذاهبٌ وذَهوبٌ، والذَّهابُ: السَّيرُ والمرورُ، والمَذهَبُ: مصدرٌ، كالذَّهابِ، وذَهَبَ به، وأذهبَه غَيرُهُ: أزالَه[2]، فهو مزيدٌ بالهمزَةِ، يُقال: ذَهَبَ بالشَّيءِ وأذْهَبَهُ، ويُستعملُ في الأعيانِ والمعاني[3]، وسائرُ ما في القرآنِ مِن (ذَهَبَ)، و(ذَهَبَ بكذا)، و(أذْهَبَ)، ومضارعاتِها، واسمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 159.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ذهب).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (ذهب).

الفاعلِ مِنْها، يدورُ حولَ معاني الانتقالِ والزَّوالِ أوِ الإزالةِ[1]، والمرادُ بإذهابِ الطَّيِّباتِ: إفناؤُها وإزالتُها في الحياةِ الدُّنيا على وجهٍ لا ينفعُ في الآخرَة، باتِّباعِ الشَّهَواتِ واللَّذّاتِ واقترافِ المعاصي[2].

2) ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾: (طيب) أصلٌ واحدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ الخَبيثِ، والطَّيِّبُ: الحَلالُ[3]، وقَد تَكَرَّرَ في الحَديثِ ذِكْرُ الطَّيِّبِ والطَّيِّبات، وأكثرُ ما يَرِدُ بِمَعْنَى الحَلالِ[4]، كَما أنَّ الخَبيثَ كِنايَةٌ عَنِ الحَرامِ، وقَد يَرِدُ الطَّيِّبُ بِمَعْنَى الطّاهِرِ[5]، والمعنَى المِحوريُّ: لطفُ وقعِ الشَّيءِ على الحِسِّ وصُلوحُه في بابِ ما يُرادُ منه، مع خُلوِّه من الغِلَظِ والحِدَّةِ، وكلُّ ما في القرآنِ من التَّركيبِ فهو الطَّيِّبُ من كلِّ شيءٍ بحسبه، ففي الطَّعامِ والرِّزقِ: هو الحلالُ الَّذي تستطيبُه الفِطَرُ السَّليمةُ، وفي النِّساءِ: الحلائلُ العفيفاتُ، وفي الرّيحِ: اللَّيِّنَةُ النَّقيَّةُ، وفي المساكنِ: الواسعُ المُريحُ، وفي الشَّجرِ: المُظِلَّةُ المُثْمِرةُ، وهكذا[6]، والمرادُ بالطَّيِّباتِ هاهُنا: ما كانوا فيه مِنَ اللَّذّاتِ، مُشتغلينَ بها عنِ الآخرَةِ، مُعرضينَ عَن شُكرِها[7].

3) ﴿ٱلْهُونِ﴾: (هون) أصلٌ يَدُلُّ على سكونٍ أو سَكِينَةٍ أو ذُلٍّ، من ذَلِكَ: الهَوْنُ: السَّكِينَةُ والوَقارُ، والهونُ: الهَوانُ[8]، وهانَ يَهونُ هونًا وهَوانًا ومَهانَةً: ذَلَّ[9]، فهو هَيِّنٌ وهَيْنٌ، وأهْوَنُ[10]، والمعنَى المِحوريُّ: لينُ الشَّيءِ أو نُعومتُه ورَخاوتُه وضَعفُه[11]، والهَوانُ على وجهينِ: أحدهما: تذلُّلُ الإنسانِ في نفسه؛ لما لا يُلحِقُ به غضاضةً، والثّاني: أن يكونَ من جهة متسلِّطٍ مُستَخِفٍّ به، فيُذَمَّ بِهِ[12]، والمرادُ بعذابِ الهونِ هاهُنا: الهَوانُ العَظِيمُ المُجتمِعُ الشَّديدُ الَّذي فِيهِ ذُلٌّ وخِزْيٌ[13].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ذهب).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 200.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طيب).
(4) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (طيب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طيب).
(7) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 109.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هون).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (هون).
(10) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (هون).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (هون).
(12) الرّاغب، مفردات القرآن: (هون).
(13) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 160.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـنْ تَـمَـتَّـعَ في الدُّنيا باللَّذّاتِ والـشَّـهـواتِ، فقد ضاعَتْ عنه طيِّباتُ الآخرةِ

في هذهِ الآيةِ الكريمَةِ عرضٌ لمشهدٍ من مشاهدِ القيامةِ، يُرَى فيه الكافِرونَ، وقد وقَفوا موقفَ الحسابِ والمُساءَلَةِ، على ما كانَ مِنهُم في حياتِهم الدُّنيا، من بَغْيٍ واستكبارٍ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وعندما يُعرَضونَ على النّارِ في هذا اليومِ، ويُساقونَ إلى العذابِ الأليمِ فِيها، يُقالُ لَهُم - وهم على شَفيرِها -: هذا جزاؤُكم، فلقد أذهبْتُم طيِّباتِكم في حياتِكم الدُّنيا، واستَمْتعتُم بها، ولم تَدَّخِروا مِنها شيئًا لهذا اليوم، لقَد كانتْ معَكُم عقولٌ تَعقلونَ بِها، وآذانٌ تَسمعونَ بِها، وأعينٌ تُبصرونَ بِها، فما استعمَلْتُم شيئًا منها في سبيلِ التَّعرُّفِ على اللّهِ والاهتداءِ إليه، بل صرفتُم هذا كلَّه إلى مواقعِ الكُفرِ والضَّلالِ، فاستحقَقْتُم في هذا اليومِ الشَّديدِ الهَولِ أن تُهدَرَ آدميَّتُكم، وتَذهبَ كرامَتُكُم، فَلا يكونُ لكم إلّا الهوانُ والإذلالُ، جزاءً وفاقًا لإعراضِكُم واستكبارِكم وفسقِكم، وصرفِكُم الطَّيِّباتِ في وجوهِ الفَسادِ، وفي اصطيادِ اللَّذّاتِ وجَلْبِ الشَّهواتِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نَوعُ الواوِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾:

احـتـمـالُ الاسـتـئـنـافِ وعـطـفِ القصَّةِ على القصَّة

الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تحتملُ أن تكونَ استئنافيَّةً، فاستأنفَ بها النَّظمُ معنًى جديدًا، وهوَ الانتقالُ من التَّهديدِ على إنكارِ البعثِ خاصَّةً، إلى الوعيدِ على مطلقِ الكفرِ عامَّةً، وتحتمل أن تكونَ الآيةُ معطوفةً على جُملَةِ: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ وما بعدها[2]، فتكون من باب عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 13/ 280.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 42.

غرضُ حذْفِ فِعلِ القولِ المُتَعَلِّقِ بِالظَّرفِ:

بعد تقرير عدَمِ الظُّلمِ؛ وبَّخهم، وقرَّعهم بإضاعةِ الطَّيِّباتِ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ فعلَ القولِ من قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ إذِ الكَلامُ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُهُ: (ويُقالُ لِلَّذينَ كَفَروا يَومَ يُعْرَضونَ عَلى النّارِ أذْهَبْتُم طَيِّباتِكم)، وقد آثرَ البيانُ حذْفَ فعلِ القولِ للإيجازِ، ووصولًا لموطنِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ الَّذي هو مقصودُ الآيةِ الكريمةِ، ومُناسبَةُ ذِكرِهِ هُنا أنَّهُ تَقريرٌ لِمَعنى ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾، أي: لا يُظْلَمونَ في جَزاءِ الآخِرَةِ، مَعَ أنَّنا أنْعَمْنا عَلَيهِم في الدُّنيا، ولو شِئْنا؛ لَعَجَّلنا لَهُمُ الجَزاءَ عَلى كُفرِهِم مِنَ الحَياةِ الدُّنيا، ولَكنَّ اللهَ لَم يَحرِمهم مِنَ النِّعمةِ في الحَياةِ الدُّنْيا؛ فَإنَّ نِعْمَةَ الكافِرِ في الدُّنيا نِعْمَةٌ للاستدراجِ، باعتِبارِ أنَّ عاقبَتَها سَيِّئَةٌ، ونِعْمَةُ اللهِ في الدُّنيا مُعامَلَةٌ بِفَضلِ الرُّبوبِيَّةِ، وجَزاؤُهم على أعمالِهِم في الآخِرَةِ مُعامَلَةٌ بِعَدلِ الأُلوهيَّةِ والحِكمَةِ[1].

نُكتَةُ تقديمِ (يَوْمَ):

تَقَدُّمُ الظَّرفِ (يومَ) للتَّهويلِ والتَّرهيبِ والتَّخويفِ

جاءَ لفظُ (يومَ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوبًا، وقد ذهبَ المُعربونَ إلى أنَّهُ إمّا ظرفٌ منصوبٌ بقولٍ مقدَّرٍ، أي: يُقال لهم: أذهبتم في يوم عرْضِكم، أو هو مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ على تقدير: اذكر يا محمَّدُ يومَ يُعْرَضون على النّارِ، وعلى هذا الوجهِ يكونُ تقدُّمُ (يومَ) في صدرِ الجملَةِ للتَّهويلِ والتَّرهيب والتَّخويفِ، فهو يومٌ تقعُ فيه أحداثٌ جِسامٌ.

توجيهُ تَخصيصِ العَرضِ بِالذِّكرِ:

في العَرض قَصدٌ لاستشعارِ الحسْرَةِ والخزي والنَّدامةِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تخصيصَ العرضِ بالذِّكرِ، دونَ الحشرِ أو الحسابِ؛ وذلك لأنَّهُ لما كانَ اللهُ تعالى عالمًا بالمفترينَ وبأعمالِهم، وكان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 42.

العرضُ يوم القيامة لكلِّ النّاسِ؛ كانَ تخصيصُ عرْضِهم للتَّشهير بخزيهم، ولتأكيد حالِهم بالانتقام منهُم، فشَبَّه حالَهُم بحالِ مَن يُعرَضون على الملكِ؛ للإشعارِ بأنَّ إحضارَهُم إحضارٌ بإراءَةٍ؛ لِما يَدُلُّ عليه العَرضُ مِن أنَّه إظهارُ الشَّيء بحيثُ يُرى للتَّوقيف على حالةٍ، ولِما تدلُّ عليه تعديةُ الفعل بحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾؛ ليكون العرضُ المُضَمَّنُ معنى الحبسِ والإراءةِ وعرضِ الأعمال أكثرَ حسرةً عليهم، وأظهرَ لكذبهم وافترائِهم.

بلاغةُ التَّعبير بمفردةِ العَرضِ:

المرادُ بالعَرضِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أنَّهم يُعَذَّبونَ بها، مِن قَولِهم: عَرَضَ بَنو فُلانٍ عَلى السَّيْفِ؛ إذا قُتِلوا به، وهو مَجازٌ شائِعٌ، وذَهَبَ غَيْرُ واحِدٍ إلى أنَّهُ مِن بابِ القَلْبِ المَعنَويِّ، والمعنى: يَومَ تُعْرَضُ النّارُ عَلى الَّذينَ كَفَروا، نحوَ: عَرضتُ النّاقَة عَلى الحَوْضِ، فَإنَّ مَعْناهُ أيضًا كَما قالوا: عَرَضَ الحَوْض على النّاقَةِ[1]، وقالَ بَعْضُهم: مَعْنى عَرْضِهم على النّارِ هو تَقريبُهم مِنها، والكَشْفُ لَهم عَنْها حَتّى يَرَوها، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: 53][2].

الـعَـرضُ كنايةٌ عـن حـصـولِ الـتَّـعـذيـبِ أو رؤيةِ النّارِ

نُكْتَةُ بِناءِ فِعْلِ ﴿يُعْرَضُ﴾ للمَفعولِ:

أشارَ مجيءُ فعلِ ﴿يُعْرَضُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مبنيًّا للمفعولِ؛ للإشعارِ بسُرعة العَرضِ على النّارِ، بدلالةِ الإيجازِ في حذفِ الفاعلِ، وإرادَة تعميم الفاعلِ، فالفاعلُ الحقيقيُّ في كلِّ شيءٍ هوَ اللّهُ سبحانه، ولكنَّهُ سبحانه قد أوكلَ الملائكةَ بالعرضِ والتَّعذيبِ، كما جاء في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ

سرعةُ العرضِ على النّارِ والتَّرهيبُ منه ممّا توعَّدَ اللهُ بهِ الكافرينَ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 179.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 416.

أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ [الأنعام: 93]، وللتَّرهيبِ والتَّخويف بالعَرضِ في حدِّ ذاتِه، فهو أمرٌ مُخيفٌ شديدُ الهولِ.

دلالةُ التَّعديةِ بـ﴿عَلَى﴾ دونَ اللّامِ في ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

في بـروزِ النّارِ للكافرينَ وظُهورِها تخويفٌ وترهيبٌ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ عَدَّى النَّظمُ الجليلُ الفعل ﴿يُعۡرَضُ﴾ بـ﴿عَلَى﴾ دون اللّام، والعرضُ يتعدَّى باللّام وبـ (على)، يُقالُ: عَرَضْتُ لهُ أمرَ كذا، وعَرَضْتُ عليه الشَّيءَ، أي: أظهَرْتُه لَه، وأبرَزْتُه، قال تعالى: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ﴿١٠٠﴾ [الكهف: 100]، أي: أبرزْناها حتَّى نَظَرَ إليها الكُفّارُ، فالمعروضُ عليهِ أو لَهُ يجبُ أن يكونَ من أهلِ الشُّعورِ والاطِّلاعِ، والنّارُ ليستْ منهُ، فَلا بدَّ أن يُحملَ العَرضُ على التَّعذيبِ مجازًا بطريقِ التَّعبيرِ عن الشَّيءِ باسمِ ما يُؤَدِّي إليه، كما يُقالُ: عُرِضَ بَنو فلانٍ على السَّيفِ؛ إذا قُتِلوا بِهِ.

القلبُ المعنويُّ يجعلُ النّارَ ذاتَ تمييزٍ

قد يُجعَلُ العَرضُ باقيًا على أصلِ معناه، ويكونُ الكلامُ محمولًا على القلبِ المعنويِّ، والأصلُ: (ويومَ تُعرضُ النّارُ على الَّذين كفروا)، أي: تَظْهَرُ، وتَبْرزُ عليهم، بحيثُ ينظرونَ إليها ظاهرةً، ويُحضَرونَ عندَها قبلَ أن يُلقَوا فيها، فيقال لهُم: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾، أي: استوفَيتُم، فأفنَيْتُم، والنُّكْتَةُ في اعتبارِ القَلبِ المبالغةُ بادِّعاءِ أنَّ النّارَ ذاتُ تَمييزٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردةِ ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ﴾:

تشبيهُ مفارقةِ الطَّيّباتِ بإذهابها

إذهابُ الطَّيِّباتِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ مُستعارٌ لِمُفارَقَتِها، كما أنَّ إذْهابَ المَرْءِ إبعادٌ لَهُ عَن مَكانٍ لَهُ، فشَبَّه مفارقةَ الطَّيِّباتِ بإذهابها على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

(1) محي الدّين شيخ زاده، حاشية محي الدّين شيخ زاده على تفسير البيضاويّ: 7/ 564.

نُكْتَةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾:

الإيماءُ إلى ما يراهُ الكافر من طيِّباتِ المؤمنين

استعملَ النَّظمُ الجليلُ مفرَدَةَ ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالطَّيِّباتِ كلُّ شيءٍ تستطيبهُ النَّفْسُ، ففي الطَّعامِ والرِّزقِ: هو الحلالُ الَّذي تستطيبُه الفِطَرُ السَّليمةُ، وفي النِّساءِ: الحلائلُ العفيفاتُ، وفي الرّيحِ: اللّيِّنةُ النَّقيَّةُ، وفي المساكنِ: الواسعُ المُريحُ، وفي الشَّجرِ: المُظِلَّةُ المُثمرةُ وهكذا[1]، واختير لفظُ (الطَّيِّبات)؛ لبيانِ إجماعِ النُّفوسِ على طيبِها، وبه تفوتُ في الآخرةِ، فلا يبقى طيِّبٌ أو مستطابٌ لأولئك الأوباش؛ ذلك أنَّهم أضاعوها في الحياةِ الدُّنيا، وركنوا إلى عقولِهم السَّخيفةِ الَّتي أوردَتْهم المهالِك، وفيه إيماءٌ إلى ما سيُشاهدُه الكافرُ من طَيِّبات المؤمنين في الآخرةِ، فيُقال لهم بقصد التَّحسير والتَّحزين: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾.

غَرضُ جمعِ لفظِ ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾:

زيادةُ توبيخِ الكُفّارِ ببيانِ عظيمِ امتنانِ اللهِ عليهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بكلمةِ ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ جَمْعًا؛ زيادَةً في توبيخِ الكُفّارِ ببيانِ عظيمِ امتنانِه عليهم، بما منحهم من الطَّيِّباتِ الكثيرةِ المتعدِّدَةِ، ورغم ذلك فقد كفروا به تعالى، ولم يؤدّوا شُكرَ ما أنعم عليهم به من نِعَمٍ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾:

الغرقُ في الدُّنيا سببُ الهلاكِ في الآخِرَةِ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الظَّرفيَّةِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هؤلاءِ الكافرينَ قد غرقوا في الدُّنيا في إذهابِ ما منحهم اللهُ من طَيِّباتٍ، فهُم لا يتوانَونَ عن النَّهلِ من اللَّذّاتِ صباحَ مساءَ، فكانوا غافلينَ عن التَّنبُّهِ ليومِ المعادِ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنين لا يغفلون عن الآخرةِ، فلا يُضيِّعون طيّباتِهم في الحياةِ الدُّنيا، بل يدَّخرونها في الآخرة، فيُجازيهم اللهُ تعالى عنها في الدُّنيا والآخرةِ.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طيب).

دلالةُ إضافَةِ الحياةِ إلى ضَميرِ المُخاطَبِ:

مُـدَّةُ حياةِ المَرءِ هي مُدَّةُ تكليفِهِ وامتحانِهِ

أضافَ البيانُ القُرآنيُّ لفظَ الحياةِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾، وعدلَ عن عدمِ الإضافَةِ، فلم يقل: (في الحَياةِ الدُّنيا)؛ لبيانِ مسؤوليَّتهم عمّا آلَ إليهِ أمرُهم بإضاعَتِهم لدنياهم، فإنَّ اللّهَ سبحانه قد جعلَ مدَّةَ الحياةِ الدُّنيا لكلِّ إنسانٍ مكلَّفٍ اختبارًا وامتحانًا، فلم يلتفتوا إلى ذلك الامتحانِ والابتلاءِ، فغفلوا عن حياتِهم الدُّنيا الَّتي هي دارُ التَّكليفِ، فتركوها غافلين، وأقبلوا على لذّاتِها مُنتبهين، فلفظُ ﴿حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس هو (الحياة الدُّنيا)؛ إذ المقصودُ أعمارُ الكافرين المخاطَبين الَّتي كانت لهم في الدُّنيا.

نُكْتَةُ استعمالِ صفةِ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

الانـشـغـالُ بالحاضرِ القريبِ مُـغْـرٍ لأصحابِ الـقـلـوبِ الضَّعيفةِ

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الحياةَ بأنَّها (دُنْيا) في قولِهِ تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾؛ وذلكَ للدَّلالَةِ على أنَّ هناك حياةً مقابلةً توصَفُ بأنَّها الآجلة، وهي الَّتي فيها الجزاءُ، وهي الحياةُ الآخرَةُ، وقد وُصِفَتِ الحياةُ بالدُّنيا؛ للدَّلالةِ على قُربِها مقارَنَةً بالآخرةِ، فأومأ الوصفُ إلى معنى التَّحذيرِ منَ الاغترارِ بسببِ قُربِها، عن الآجلةِ الَّتي فيها النَّعيم المُقيم.

دلالةُ عطفِ ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم﴾ علَى ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾:

مَـن جَـعـلَ الاسـتـهـلاكَ والاسـتـمـتـاعَ بـلـذّاتِ الـدُّنيا غايتهُ الآخرَةُ والسَّعْيُ لها

عطفَ النَّظمُ الجليلُ فعلَ الاستمتاعِ على فعلِ الإذهابِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، وهاتانِ الجُملتانِ لا تقفان عند معنى الإذهابِ والاستمتاعِ؛ لأنَّ الاستمتاعَ ليسَ ذنبًا يُفضي إلى العرضِ علَى النّارِ، وإنَّما المقصودُ هو أنَّكم جعلتُم هذه الدُّنيا مبدأً ونهايةً، وجعلتُم وُكدَكُم وكَدَّكُم لها، معَ تظاهرِ الأدِلَّةِ على الحَياةِ الثّانيةِ، وأنَّ اللّهَ ما خلقَ هذا الوجودَ بكُلِّ طَيِّباتِهِ الَّتي لم يُحْرَم منها مؤمنٌ ولا كافرٌ إلّا بالحقِّ وأجلٍ مُسَمًّى[1].

(1) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 477.

نَوعُ الباءِ ودلالتُها في ﴿بِهَا﴾:

التَّمَسُّكُ بلذائذِ الدُّنيا والالتصاقُ بها يُفضي إلى الخسرانِ المبينِ

الباءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ للإلصاقِ؛ لأنَّ ما يَستمتعونَ به مُلاصِقٌ لهُم لا ينفكُّ عنهُم، والمعنى: أنَّكُمُ أذهبتُم الطَّيِّباتِ، واستمتعتم بملذّاتِ الدُّنيا، ورضيتُم بِشَهَواتِها وألهتْكُم طَيِّباتُها عن السَّعي لآخرتِكم، وتمتَّعتم تمتُّعَ الأنعامِ السّارِحَةِ، فهي حظُّكم من آخرتكم، فجاءتِ الباءُ؛ للدَّلالة على حرصِهم التّامِّ وعدمِ انفكاكِهِم عن لَذائذِ الدُّنيا، وانصرافهم بها عن طلب الآخرة والعملِ لها، دون توظيف لها في طاعة الله تعالى، واتِّباع رسله في الإيمان بشرع الله تعالى.

دلالة الظَّرف في قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾:

يومُ القيامةِ يومٌ شديدُ الوقْعِ، لهُ رهْبَةٌ في النُّفوسِ

نُصِبَ (اليومَ) على أنَّه ظرفٌ، لكنَّ المرادَ به مطلقُ الزَّمانِ لا المتعارفُ، وهو يشملُ القبضَ والإماتَةَ والنَّشرَ والعرضَ وما بعدَهُ، فهو يَحتَمِلُ أن يكون ظرفًا للعذاب يومَ القيامة، أو حالَ القبضِ في الدُّنيا، وهوَ يومٌ شديدُ الوقْعِ، لهُ رهْبَةٌ في النُّفوسِ.

دلالةُ تقديمِ الظَّرفِ على الفِعلِ:

مدارُ السّورَةِ على التَّحذيرِ من الإعراضِ عن يومِ القيامَةِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الظَّرفَ ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ على فعلِه ﴿تُجْزَوْنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ للاهتمامِ بهذا اليومِ الشَّديدِ، الَّذي ينبغي أن ترهبَهُ الخلائقُ أجمعينَ؛ إذ مَدارُ السّورَةِ الكريمَةِ على التَّرهيبِ منَ الإعراضِ عنهُ، وقد بدأتِ السّورَةُ بتحذيرِ الكافرينَ منهُ، في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ [الأحقاف: 3].

نُكتَةُ استعمالِ مُفردَةِ الجَزاءِ دونَ رَديفاتِها:

آثَرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بمفرَدَة الجزاءِ دونَ رَديفاتِها في قولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، فلم يقل: تَذوقونَ ونَحْوَه؛

لأنَّ الجزاءَ يدلُّ على قيام الشَّيء مقامَ غيرِه، ومكافأته إيّاه[1]، فهوَ المكافأةُ على الشَّيءِ عامَّةً في الخيرِ والشَّرِّ، ويصدقُ في الثَّواب والعقاب فيما يَخصُّ الحسابَ في يومِ القيامَةِ[2]، والمعنى: يُعطونَ جَزاءَ عملِهم، وهو عِوضُ العملِ، وما يقابَلُ به من أجرٍ أو عقوبةٍ، وكذلك فإنَّ كلمةَ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ كلمةٌ واقعةٌ موقعًا حسنًا جِدًّا؛ لأنَّها جاءت في سياق الغضبِ الشَّديدِ على هؤلاءِ الذين فتنتهم طيّباتُ الحياة الدُّنيا، وصاروا أعداءً لرسول اللّه ﷺ وأعداءً للّه ولدينه، فأقامت كلمةُ الجزاءِ الحقَّ والعدلَ، وأنَّ الغضبَ بالغًا ما بلغَ، ومهما كانت أسبابُه؛ لا يُجيز لأحدٍ أن يعاقبَ المُذنبَ الظّالمَ المعاندَ للّهِ بأكثرَ ممّا يستحقُّ[3].

الجزاءُ من جنسِ العملِ وبمقدارِه، ولا يَظلِمُ ربُّكَ أحدًا

نُكْتَةُ بِناءِ فِعلِ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ للمَفْعولِ:

بَنى النَّظمُ فِعْلَ الجزاءِ للمفعول في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ اهتمامًا بالجزاءِ ذاته، لا بالنَّظر لكونه من معيَّنٍ، وفي إيجاز العبارة بحذف الفاعل تعجيلٌ بإبلاغهم بسوءِ مآلهم، فلا يَفصلُ بين لفظِ الجزاءِ ولفظِ عذابِ الهون فاصلٌ، وهذا فيه غايةُ التَّرهيبِ، وعظيمُ التَّخويف.

التَّعجيلُ بذِكْرِ العذابِ فيه غايةُ التَّرهيبِ وعظيمُ التَّخويف

دلالةُ التَّعبيرِ بمفرَدَةِ ﴿عَذَابَ﴾:

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمادَّةِ العذابِ؛ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ لما فيها من الدَّلالاتِ الكثيفةِ المتراكِبَةِ على الإهلاكِ والإفناءِ للقوَّةِ والغِلَظِ والحَيَويَّةِ المنبثَّةِ في البَدن، بإيقاعِ الآلامِ المُؤَدِّيَةِ إلى ذلكَ، كالضَّربِ المُبَرِّحِ بصوَرِه، والجَلْدِ والكيِّ بالنّارِ، وقَطْعِ الأعضاءِ، وبالإجاعةِ والإعطاشِ، ويصدقُ

إضافةُ العذابِ إلى الهونِ أليقُ بالمقامِ من العقابِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزى).
(3) محمّد أبو موسى، آل حم: (الجاثية، الأحقاف)، دراسة في أسرار البيان، ص: 481.

بإيقاعِ الإهانةِ والإذلالِ لذوي الكِبرِ والاعتزازِ، فهو يتفاوت في الأنواعِ والشِّدَّةِ والأثرِ[1]، فناسَبَ لفظُ ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ شدَّةَ جُرْمِهم وكفرِهم واستكبارِهم، ولمّا أُضيف العذابُ إلى لفظ ﴿ٱلْهُونِ﴾؛ كان هو الأليق في الكلام.

دلالةُ إضافةِ ﴿عَذَابَ﴾ إلى ﴿ٱلْهُونِ﴾:

مَنِ استكبرَ على الحقِّ، فقالَ غيرَ الحقِّ؛ خانَ، فهانَ

أضافَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿عَذَابَ﴾ إلى ﴿ٱلْهُونِ﴾ في قولِ اللهِ: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ تأكيدًا للهَوانِ؛ إذِ الهونُ هوَ الهَوانُ الشَّديدُ، وإضافةُ العذابِ إليهِ كقولِك: (رجلُ سوءٍ)، فدلَّ على العَراقةِ في الهَوانِ والتَّمكُّنِ فيه، وبهذه الإضافةِ تحقَّقَ معنيانِ: العذابُ الجامعُ بينَ الإيلامِ العَظيمِ، والهَوانِ الشَّديدِ، والخزي المديدِ، كما دلَّت الإضافة على أنَّ الهوان ملازمٌ للعذاب، فقدِ استكبروا على الحقِّ، وقالوا غيرَ الحقِّ، فكانت العقوبةُ من جنسِ الجريمة[2].

إيثارُ إضافةِ العذابِ إلى الهونِ دون الوصفِ به:

عـذابُ الهـونِ أشـدُّ قـسـوةً وإهـانَـةً من العذابِ المهينِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ آثَر البيانُ إضافةَ العذابِ إلى الهونِ، دونَ أن يصفَه به، فلم يقل: (فاليومَ تُجزونَ العذابَ المهينَ)؛ لأنَّ نسبةَ الإضافةِ ألصقُ من نسبة الصِّفة بالموصوف[3]، فالإضافةُ إمّا أن تكون بمعنى (من)، فيكون العذابُ من الهونِ نفسه؛ لأنَّ الإضافةَ تدلُّ على أنَّ الاسمَ صار مع المضافِ شيئًا واحدًا، فعذابُ الهونِ ليس عذابًا متَّصفًا بأنَّهُ مهينٌ، بل هوَ الهونُ ذاتُه، أو بمعنى اللّام، فيكون العذابُ لأجل الهونِ الَّذي يقع عليهم، وهذا بمعنى المآلِ، أو بمعنى (في)، فيكون المعنى: (عذابًا في الهونِ)، ولا مانعَ مِن اجتماعِ هذه المعاني، وهذا أبلغُ من أن يُقال: (العذاب الهون).

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جزى).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/ 2094.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب في الكشف عن قناعِ الرّيب: 6/ 167.

نوعُ الباءِ ودلالتُها في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

الاستكبارُ والفسقُ سببا عذابِ الهونِ

الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سببيَّةٌ، أي: تجزونَ عَذابَ الهونِ بِسَبَبِ كَونِكم مُستَكبِرينَ في الأرضِ، وكَونِكم فاسِقينَ، وما دَلَّت عليه هَذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ من كَونِ الاستكبارِ في الأرضِ والفسقِ من أسبابِ عَذابِ الهونِ، وهو عَذابُ النّارِ، جاءَ مَوَضَّحًا في غَيرِ هذا المَوْضِعِ، كَقَولِهِ تَعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠﴾ [الزّمر: 60]، وقَولِهِ تَعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السّجدة: 20][1].

نوعُ (ما) ودلالةُ استعمالِها في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

تهويلُ استكبارِهم وفِسقِهم للتَّحذيرِ من مغبَّةِ مصيرِهم

جاءت (ما) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ مصدريَّةً؛ للدَّلالة على تهويل استكبارِهم وفِسقِهم وبشاعَتِهِ؛ وذلك لما في (ما) من الإبهامِ، ويتضمَّنُ معنى التَّهويلِ والتَّفخيم، كما يُشير إلى تمكُّن الاستكبارِ والفسقِ منهم، فالاستكبارُ والفسقُ مُتَعَلِّقانِ بِكيانِهم، والمعنى: أنَّهم بسبب كيانهم على صفة الاستكبارِ والفسقِ استحقّوا عذابَ الهونِ، ولو كانت (ما) موصولةً[2]؛ لكان المعنى: أنَّ ذاتَ الاستكبارِ والفسقِ هما سببُ ذلك الجزاء.

بلاغةُ ذِكرِ ﴿كُنتُمْ﴾:

إصرارُ الكفّارِ على الاستكبارِ والفِسقِ أوردَهُم موردَ التَّهلُكَةِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ ذكر النَّظمُ الشَّريفُ فعلَ ﴿كُنتُمْ﴾، فلم يقل: (تجزون عذاب الهونِ باستكبارِكم)؛ وذلك للدَّلالةِ على تَعَمُّدِهم الاستكبارَ والفسقَ، وإصرارِهم عليه، فهُم فعلوا ذلك عامدينَ مُتَعمِّدينَ، واستمرّوا على ذلك طيلَةَ حياتِهم دونَ حياءٍ أو خجلٍ، وأُتي بفعلِ الكينونَةِ لتوكيدِ اتِّصافِهم بهاتينِ الصِّفَتينِ الذَّميمَتَينِ، فهما لهما جِبلَّةٌ وطَبعٌ[3].

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 421.
(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 26/ 54.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 160.

توجيهُ تَخصيصِ الاستِكبارِ بِالذِّكرِ:

الاستكبارُ أصلُ الكُفرِ، وهو ذنبٌ قلبيٌّ أعظمُ من ذنبِ الجوارحِ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ الاستكبارَ بالذِّكرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ دونَ الكفرِ، وقَدَّمَهُ على الفِسقِ؛ وذلك لأنَّ الاستكبارَ هو التَّعالي عن قَبولِ الحقِّ[1]، فهوَ الأصلُ في الكُفرِ، وهو التَّغاضي عن وجودِ اللّهِ وإنكارِ البعثِ، وبه كانَ كفرُ أوَّلِ كافرٍ، وهو إبليسُ، والاستكبارُ فعلٌ قلبيٌّ، فقدَّم العِلَّة على النَّتيجة تحذيرًا منها.

لطيفةُ التَّعْبيرِ عنِ الاستكبارِ بصيغة الاستفعالِ:

الاستكبارُ على الحقِّ دليلُ الصِّغارِ والحقارِ

الاستكبارُ هو الاتِّصافُ بِالكِبْرِ، وهو الحالةُ الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ من التَّرفُّعِ والتَّعالي على الآخرين واحتقارِهم والتَّمنُّعِ عن قَبولِ الحقِّ معاندةً وجحودًا وإنكارًا[2]، وقد صِيغَت لَهُ الصِّيغَةُ الدّالَّةُ عَلَى التَّكَلُّفِ والتَّعمُّلِ والتَّكثُّرِ مِنَ الكِبرِ، والمعنى: أنَّهُم يُعجَبونَ بِأنفُسِهِم، ويَعُدّونَ أنفُسَهُم عُظماء، ويجتهدونَ في التَّكَبُّرِ عِنادًا وكُفْرًا؛ فلا يَأتَمِرونَ لأمرٍ، ولا يَنتَصِحونَ لناصحٍ، وذَلِكَ شأنُ مَن يَرى أنَّهُ أكبَرُ مِن أن يخضع لحقٍّ، أو يُساوي نفسَهُ بشخصٍ، فالاستكبارُ غَمْطُ الحقِّ بعدمِ الخضوعِ له، واحتقارُ النّاسِ[3]، ومن لطائفِ اللُّغةِ العربيَّة: أنَّ مادَّة الاتِّصاف بالكِبرِ لم يجئ منها إلّا بصيغة الاستفعال أو التَّفعُّل؛ إشارةً إلى أنَّ صاحبَ صفةِ الكِبرِ لا يكون إلّا مُتطلِّبًا الكِبرَ، أو مُتكلِّفًا له، وما هو بكبير حقًّا[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ المُضارعِ ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾:

تجدُّدُ الاستكبارِ موجِبٌ لعذابِ الهونِ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ المضارعةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لتصويرِ تجدُّدِ استكبارِهِم في الحياةِ

(1) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 23/ 14223.
(2) مجموعة من المؤلّفين، موسوعة التّفسير الموضوعيّ: (الاستكبار).
(3) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 9/ 170.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 104.

الدُّنيا، واستمرارِهم عليه طيلةَ حياتِهم، فاستحقّوا عذابَ الهونِ، والمُرادُ بالاستِكبارِ الاستِكبارُ على الرَّسولِ ﷺ وعلى قَبولِ التَّوحِيدِ[1].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفِيَّةِ ﴿فِي﴾:

التَّعبيرُ بالظَّرفيَّةِ إشارَةٌ لانتشارِ استكبارِهم وظهورِ عُتوِّهم

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ استكبارَهم قد تغلغلَ في الأرضِ، وشملَ أقطارَها، ولم يقتصرْ على جانبٍ من جَوانبها، فهُم حريصونَ على نشرِ فسادِهم واستكبارِهم في الأرضِ كلِّها؛ لأنَّ الكُفرَ يخشى انتشارَ الإسلامِ، وفي الظَّرفيَّةِ كذلك بيانٌ لتمكُّنِ هذا الاستكبارِ والفسوقِ في الأرضِ، الَّتي هي لِكَونِها تُرابًا ومَوضوعَةً على الزَّوالِ والخَرابِ، أحَقُّ شَيءٍ بالتَّواضُعِ والذُّلِّ والهَوانِ[2]، فالكبيرُ والمُتكبِّرُ واحدٌ لا نظيرَ لهُ، وهو اللهُ الواحدُ القهّارُ.

غَرضُ ذِكرِ قيدِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

زيادَةُ التَّوبيخِ بانتشارِ فسوقِهم واستكبارِهم

أطنبَ الذِّكرُ الحكيمُ بزيادَةِ قيدِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، أي: ليسَ هوَ خفيًّا مُقتَصِرًا على أنفسهم، بل هوَ مبثوث في الأرضِ، أي: مبثوثٌ أثَرُهُ، فهو تَكبُّرٌ شائع في بقاعِ الأرضِ، كقولِه تعالى: ﴿يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: 23]، وقولِه تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: 27]، وقولِه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37].

نوعُ الباءِ ودلالتُها في قولِه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:

الالتصاقُ بالباطلِ والاستعانَةُ بهِ من شِيَمِ المستكبرينَ

الباء في قولِ اللهِ تعالى: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تحملُ معنيينِ من أشهرِ معانيها، هُما: الإلصاقُ والاستعانةُ، أي: إنَّهم يستكبرونَ في الأرضِ مُلتصقين بالباطلِ والكُفرِ والفسوقِ، لا ينفكّونَ عنها ومُستعينين بها، وقد تكونُ الباءُ هاهُنا بمعنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 43.
(2) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 13.

الملابَسَةِ، أي: إنَّهم متلبِّسونَ بالباطِلِ منغمسونَ فيه، غيرَ مستحقّين للحقِّ.

توجيهُ ذِكرِ قيدِ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:

التَّشنيعُ على المستكبرينَ بصفاتِهِم اللّازِمَةِ المتأصِّلَةِ

قيَّدَ النَّظمُ الحكيمُ الاستكبارَ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ الاستِكْبارَ قد يَكونُ بِالحَقِّ؛ لِكَوْنِهِ على الظّالِمينَ كالتَّرفُّعِ عنِ المبطلينَ، وإهانةِ الجبّارينَ، واحتقارِ المُحاربين، فَيَكونُ مَمْدوحًا[1]، كما أنَّ فيه زيادةً في التَّشنيعِ على الكافرينَ المستكبرينَ الفاسقينَ، بِذِكرِ ما هو صفةٌ لازمةٌ لَهُ، وهو مُغايَرَةُ الحقِّ، أي: دِينُهُم الباطلُ وظلمُهُم المُفرِطُ، وهي حالٌ لازمةٌ للاستكبارِ، كاشِفَةٌ لوصفِهِ.

دلالةُ واوِ العَطفِ في قوله: ﴿وَبِمَا﴾:

اجتماعُ الكِبرِ القلبيِّ والفسوقِ السُّلوكيِّ في الذين كفروا

عَطَفَ النَّظمُ الحكيمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لإضافَةِ سببٍ آخرَ من أسبابِ استحقاقِهِم العذابَ، وهو الفسوقُ، فجمع عليهم كِبرَهُمُ القلبيَّ، وفسوقَهم السُّلوكيَّ.

نوعُ الباءِ ودلالتُها ﴿وَبِمَا﴾:

الفسقُ من أسبابِ العذابِ المهينِ

الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ سبَبِيَّةٌ، أي: تجزونَ عَذابَ الهونِ؛ بِسَبَبِ كَونكم فاسِقينَ، وما دَلَّت عليه هَذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ من كَونِ الفسقِ في الأرضِ من أسبابِ عَذابِ الهونِ، جاءَ موَضَّحًا في غَيرِ هَذا المَوضِعِ، في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السّجدة: 20][2].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفِسْقِ دونَ التَّكذيبِ مضارِعًا:

تجدُّدُ الفِسقِ والاستمرارُ عليهِ موجبٌ لعذابِ الهونِ

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفسقِ دونَ التَّكذيبِ؛ لأنَّ الفسقَ معناه الخروج، فهو أعمُّ مِنَ التَّكذيبِ؛ لأنَّه نوعٌ من أنواعِه، فالفسقُ يشمل

(1) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 13.
(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 421.

الكفرَ والشِّركَ والتَّكذيبَ؛ لذلك كان التَّعبيرُ مُشْيرًا إلى أنَّهم جمعوا كلَّ هذه الأنواع، وعبَّرَ بصيغَةِ المضارَعة في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا يُجَدِّدونَ الخُروجَ عَن مُحيطِ الطّاعَةِ التي تَدعو إلَيها الفِطرَةُ الأولى والعَقلُ إلى نَوازِعِ المَعاصِي[1].

بلاغةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ ﴿تَفْسُقُونَ﴾:

عمومُ ما ارتكبَه الكفّارُ من الدَّنايا موجِبٌ لعذابِهم

حذفَ النَّظمُ الجليلُ مُتَعَلَّقَ الفعلِ ﴿تَفْسُقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على عمومِ فسقهم، فقد كانوا يقترفونَ كلَّ أنواعِ المعاصي والدَّنايا دونَ خَجلٍ أو استحياءٍ، فاستحَقّوا بذلك عذابَ الهونِ؛ جزاءً وِفاقًا لخروجهم على الفِطَرِ السَّليمَةِ، ولتوجيه الأنظارِ إلى فِسْقهم، الذي داعيه هو الكفرُ باللهِ تعالى، بل هو أخصُّ خصائصه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 18/ 160.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والخمسون،
سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 55 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-659-89-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 55 : المجلد الخامس والخمسون، سورة الجاثِية من الآية 16 إلى سورة محمَّد الآية 06.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-659-89-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4299298 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"